سيف بن عمر

للدكتور جواد علي

ذلك سيف بن عمر ، مؤرخ نشيط من مؤرخي القرن الثاني للهجرة . كان مثل رملائه شهماً في التفتيش عن أخبار الماضين ، وتتبع أمورهم ، والكتابة عن الأموات مثل جماعتنا أصحاب التأريخ. لم يترك التاريخ حتى أحبه واصطفاه من بين الناس فمات سنة ١٨٠ للهجرة فكتب عنه من كان على شاكلته ، من أصحاب التأريخ. من هؤلاء المفتونين بنبش الماضي ، والبحث عن الحسنات والسيئات. وهي لا تقدم المؤرخ المسكين ولا تؤخره ، ولا تقدم العالم ولا تؤخره ، ولكنها الدنيا ، والدنيا عالم الجنون فيه فنون . وأنا مع الأسف الشديد من صرعى هذا الجنون . ولكن ولله الحمد الذي لا يحمد على مكروه سواه ، لولا هذا الجنون لما حدث عمران ولا ظهر اختراع ولا حدثت هذه الطفرات التي هي من عمل « المجانين » الذين يمتازون عن الأسوياء بحالات سمّها يا أخي ما شئت ...

ثم سيف بن عمر الذي أقدمه للقراء كوفي من مدينة « الكوفة » المدينة العلوية الخارجية المثمانية السفيانية المروانية العباسية ، حرباء المدن ، و « منجستر » زمانها ، صاحبة المعامل الضخمة ، والشركات الكبرى لصنع الأخبار ، ورواية الأحاديث ووضع القصص ، المدينة التي نفقت سوقها في الأخبار ، واشتغلت معاملها ليل نهار في صنع الشعر والنثر فأخرجت بضاعة مزجاة ، على درجات متباينات ، بينها الصحيح السليم الأصيل الذي يمثل أعلى درجات الرواية ، وبينها الموضوع المنحول الفاسد ، الذي له أصحاب واتباع وسوق على كل حال ، يعيش عليه عدد من أصحاب الفطنة والذكاء والمكر والقصد ، وأصحاب العقائد أيضاً الذين يرون في الوضع نصراً للعقيدة والمذهب ، وقربى إلى الله ، وراحة للضمير .

ولم يرد في الكتب أن صاحبنا كان واحداً من أولئك الذين عرفوا بالعبث والمجون وبفساد الأخلاق كوالبة بن الحباب ، أو مطيع بن أياس ، أو حماد عجرد ، أو حماد بن الزبرقان ، أو حماد الراوية ، أو أمثالهم ممن اختلط حديثهم بالمجون ، واكتسب أدبهم لوناً ، وإن كان أبعد ما يكون عن الشهامة والآداب ، وحياة الرزانة والجد ، وأقرب ما يكون إلى العبث وتمضية الوقت ، إلا أنه لون طريف على كل حال من ألوان الأدب . والأدب في عرف الادباء أشكال وألوان . ولم يعرف عنه شعر من ذلك النوع الذي كان يقوله الشعراء في دار « ابن رامين » قبلة الشعراء المجان الذين يبحثون عن الخمر والجمال في هذه الدار . ولم يعرف عنه أمر آخر من تلك الأمور التي تعد منقصة في الرجال ، ومع ذلك فقد اتهم بالزندقة والوضع ، والكذب في الحديث .

أما الزندقة فلا أستطيع أن أثبتها ولا أن أنفيها ، فلم تذكر الكتب التي اتهمته بهذه التهمة الأسباب الداعية إلى هذا الاتهام. وأما الوضع والدس والكذب في الحديث فلها شأن سنراه فيما بعد .

وعرف سيف بتخصصه بلون واحد من الأخبار ، هي أخبار « الفتوح والردة » وكلها حروب وعراك : حروب لنصر كلمة الله وإعلان شأنه ، وعراك لإخماد كلمة من أراد إخماد كلمة الله وإطفاء نوره . ولذلك قيل له صاحب « كتاب الردة والفتوح »[1] وعرف بهذا الكتاب الذي لم يصل إلينا كاملا مع الأسف ، ولعله لم يصل إلى الناس منذ أمد بعيد . وتدل وقائع الأحوال على أنه كان صاحب كتب أخرى في التاريخ .

وقد اعتمد على هذا الكتاب مؤرخ حصيف شهير هو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب أبو جعفر الطبري التوفي سنة (٣١٠) للهجرة ، وإلى هذا المؤرخ يعود الفضل في إطلاعنا على نماذج من ذلك الكتاب ، وعلى فصول منه . وقد ألف عدد من كبار المؤرخين في « الردة » ومع ذلك فقد رجح الطبري سيف على سواه ؛ رجحه حتى على « كتاب الردة والدار » لأبي عبد الله محمد بن عمر الواقدي[2] . وعلى كتاب « الردة » لأبي الحسن علي بن محمد المدائني[3] . وعلى كتب أخرى لمؤرخين شهيرين في هذا الموضوع كانوا في الطليعة وفي مقدمة أصحاب الأخبار . ويستمر صوت « سيف » عالياً في تاريخ الطبري ، حيث تجد له

(١) الفهرس ص ٣٨ . (الطبعة المصرية) .
(٢) الفهرست ص ١٤٤
(٣) الفهرست ص ١٤٩

مكانة ظاهرة فى الكتاب ، إلى انتهاء حوادث معركة « الجمل » فينخفض هذا الصوت ثم ينقطع تماما ، ليرتفع صوت آخر ، صوت قوى رنان ، هو صوت أبى مخنف لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف الأزدى[1] الذى يتسلم دوره ، ويصبح بطل الكتاب من معركة « صفين » فيما بعد يساعده الدائنى وعوانة والواقدى وعمر بن شبة وابن الكلبى وأمثالهم .

وكان سيف كأكثر أصحاب الأخبار عاطفى المزاج ، متعصباً لقبيلته ، يرفع من شأنها ، ويضيف إليها ، ويجعلها بطلة فى كل الحوادث ، مثله فى ذلك مثل أكثر مؤرخى زمانه ، الذين أضافوا إلى قبائلهم مالا يدخل فى حسابها ، فخلقوا لها شرفاً ونثراً ليجعلوا لها شأناً يفوق شأن القبائل الأخرى . وما الذى يهم ابن القبيلة غير قبيلته التى ينتمى إليها ، والتى تدافع عنه ، والتى تكون قوميته ، أما القبائل الأخرى فأمرها إلى الله .

وأنا لا أريد أن ألوم صاحبنا على عاطفته الجامحة هذه ، فقد كان عصره عصر قبائل ، وقد كان النظام السياسى القائم نظاماً قبلياً ، يستند على العصبية القبلية . لا حقوق للمواطن فيه إلا إذا كان ينتمى إلى قبيلة تحميه ، أو إلى عشيرة تدافع عنه ، فطبيعى إذاً أن يكون على المؤرخ فى ذلك الوقت واجب شاق ، ودين فى عنقه للقبيلة ، فهو مضطر إذا بحكم الوقت إلى التعصب لعشيرته ، وإضافة المفاخر إليها ، فلا نلوم صاحبنا إذاً إذا ما أضاف إلى « تميم » ونسب إليها فى الفتوحات والردة ما كان يجب أن ينسب لقبيلة أخرى . فالعصر عصر قبائل . وقد نسب محمد بن السائب بن بشر الكلبى المتوفى سنة ١٤٦ وابنه ابو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبى المتوفى سنة ٢٠٦ للهجرة وغيرهما ممن هو أقدم أو أحدث عهداً منهما ، أشياء كثيرة إلى قبائلهم لم يكن لها أصل ولا نسب فى الأخبار .

ثم لا نعجب من فعل أولئك الناس ؛ فقد أضاف القرن العشرون بآلاته واختراعاته وتقدم العقل فيه أضعاف الذى أضافه أولئك الذين نتحدث عنهم ، كما حذف القرن العشرون بكبريائه واعتداده بما يملكه من وسائل النقد والتدقيق ، والتمحيص ، شيئاً كثيراً من الحقائق والوقائع التى يعرفها الناس فى كل مكان فلا عجب إذاً إذا ظهر من قال : كذب والله أصحاب التاريخ . وويل للعالم من شر المؤرخين . وأنا واحد منهم على كل حال .

درس سيف بن عمر على جماعة من المؤرخين والمحدثين والأخباريين أمثال هشام بن عروة المتوفى سنة ١٤٦ أو ١٤٧ للهجرة وهو من ممثلى مدرسة الحديث فى المدينة ومن كبار المحدثين بها ، وناشر طريقة أهل المدينة فى العراق[2] ، ومن المحدثين بحديث أهل العراق ، والذى عده أهل المدينة فيمن أسف فى أواخر عهده فى الحديث ، وانحرف عن الجادة ، جادة أهل المدينة المعروفة فى كيفية رواية السند ، وفى الجرح والتعديل ، فتركه المشائخ مشائخ المدينة الذين حافظوا على الطريقة التى ورثوها وهى طريقة محافظة بالنظر لأهل الحديث فى العراق .

ودرس على محدث آخر يرجع أصله إلى البيزنطيين هو ابن جريج ، أبو الوليد أو أبو خالد عبد الملك بن عبد العزيز الرومى المتوفى سنة « ١٥٠ » من أوائل المؤلفين فى الإسلام . وكانت له كتب تتداولها الأيدى عرفت عند أصحابه بكتب الأمانة[3] . يظهر أنها كانت مبوبة ومرتبة على فصول . وهو من المشتغلين بالسيرة والمغازى بالإضافة إلى الفقه والحديث . وأخذ عن أستاذ آخر هو موسى بن عقبة بن أبى عياش الأسدى مولى آل الزبير المتوفى سنة ١٤١ للهجرة من محدثى المدينة ومن قدماء المشتغلين بالسيرة والمغازى[4] . وهو ثقة أهل المدينة فى السيرة ، قال عنه الإمام مالك : عليكم بمغازى موسى بن عقبة فإنه ثقة ؛ أو عليكم بمغازى الرجل الصالح موسى بن عقبة فإنها أصح المغازى . وهى شهادة ذات قيمة ، فقد كان الإمام صعب الإرضاء ، لا يعطى مثل هذه الشهادة إلا بعد امتحان .

وقد نقل من مغازيه عدد من العلماء مثل ابن جريج والواقدى وابن عيينة ، وعرف مؤلفه عند المشائخ بمغازى موسى بن عقبة . وقد عثرت على قطعة منه حفظت فى خزانة كتب برلين[5] . وكان من مشائخ سيف ، رجال معروفون فى عالم التأريخ ، لهم

(١) الفهرست ص ١٣٦ J. wellhausen Das Arabische Reich und sin Sturz P. V.

(٢) تذكرة الحفاظ حـ ١ ص ١٣٦ ، تهذيب التهذيب حـ ١١ ص ٤٨

(٣) تهذيب التهذيب حـ ٦ ص ٤٠٤ ، وتوفى سنة ١٤٩ على رواية أخرى . تذكرة الحفاظ حـ ١ ص ١٦٠ ـ ١٦١

(٤) تهذيب التهذيب حـ ١٠ ص ٣٦٠ ، تذكرة الحفاظ حـ ١ ص ١٣٩ .

(٥) تذكرة الحفاظ حـ ١ ص ١٤٠ .

أسماء بارزة ترد فى أكثر الكتب التى تبحث عن صدر الإسلام أمثال محمد بن السائب الكلبى عالم الكوفة ومرجع أهل الأخبار والأنساب المتوفى سنة « ١٤٦ هـ »[١] ومن المؤلفين ، وأمثال محمد بن إسحاق صاحب السيرة المعروف ، وحامل طريقة أهل المدينة فى كتابة السيرة إلى أهل العراق . وأمثال هؤلاء ممن قد يخرجنا البحث عنهم عن الاستمرار فى وحدة الموضوع .

واقتبس من كتب « سيف » عدد من المؤرخين ، منهم ، نصر بن مزاحم المنقرى المتوفى سنة (٢١٢) للهجرة ، صاحب كتاب « وقعة صفين »[٢] والطبرى أبو جعفر محمد بن جرير ، فى « أخبار الردة » والظاهر أنه استعان بكتاب «سيف» بالذات كالذى يفهم من قول الطبرى « حكى الطبرى عن سيف فى كتابه عن أبى عثمان . . . . »[٣] . أو « ذكر سيف عن أبى الزهراء القشيرى عن رجل من بنى قشير . . . »[٤] ومن عادة الطبرى استعمال مثل هذه العبارات عند النقل من الكتب ، وإلا فيذكر الهند ، إلا فى الحوادث التى وقعت فى أيامه أو فى أيام ليست بعيدة عنه . واستعان الطبرى بكتاب آخر من كتب سيف هو « كتاب الجمل ومسير عائشة وعلى »[٥] وقد أخذ سيف أقوالة من مظانها الأصلية ، ومثل شهود عيان شهدوا المعارك ، أو ثقاة سمعوا من الشهود الثقات ، وقد ذكرت أسماء قسم منهم فى موضعه من تاريخ الطبرى ، فى القطع التى انتزعها من ذلك للكتاب . فحفظ لنا « ابن جرير » بذلك نماذج من هذا المرجع القيم المفقود . ولعل له كتابا فى معركة « صفين » هو الكتاب الذى نقل متنه « نصر بن مزاحم » فى بعض الأماكن من كتابه «وقعة صفين»

ورد إسم « سيف بن عمر » فى أكثر من « ٣٠٠ » موضع من تاريخ الطبرى ، ورد لأول مرة فى حوادث سنة « ١٠ » للهجرة[٦] وهى السنة التى بدأ مسيلمة فيها بادعاء النبوة فى حياة الرسول[٧] . وورد إسمه لآخر مرة فى حوادث سنة « ١٦٦ » للهجرة وفى ابتداء على بن أبى طالب بالخروج إلى صفين . ثم تنتهى أخبار سيف عند هذا الحد وتنقطع . فهل يعنى هذا أن صاحبنا لم يشتغل إلا فى الردة ومعركة الجمل ؟

يحدثنا ابن النديم عن سيف فيقول : أحد أصحاب السير والأحداث وله من الكتب ، كتاب الفتوح الكبير والردة ، كتاب الجمل ومسير عائشة وعلى ، وروى سيف عن شعيب ابن ابراهيم . »[٨] فيظهر من كلام ابن النديم أنه كان صاحب مؤلف كبير فى الفتوح يظهر أنه فقد مع الأسف ، ولعل له عددا من المؤلفات الأخرى لم يصل خبرها إلى مسامع ابن النديم .

وأخذ الطبرى أخبار « سيف » عن طريق آخر هو طريق شيخه « السرى » الذى ورد اسمه فى « ٢٤١ » موضعا من تاريخ الطبرى . ورد لأول مرة فى أخبار الردة[٩] ، وورد لآخر مرة فى حوادث سنة ١٤٥ للهجرة ، فى معرض الكلام عن تأسيس مدينة بغداد[١٠] . والسرى الذى يقصده الطبرى هو : السرى بن يحيى[١١] من رواة شعيب بن ابراهيم الكوفى راوية كتب سيف بن عمر . وقد قال ابن حجر العسقلانى عن شعيب ابن ابراهيم فيه جهالة ، ليس بالمعروف وله أحاديث وأخبار وفيه بعض النكرة[١٢] ولا نعرف من أمرهما مع الأسف شيئا مع كثرة ورود اسميهما فى تاريخ الطبرى .

لم يكن سيف بن عمر راوية شعيب بن ابراهيم كما ورد ذلك فى كتاب الفهرست لابن النديم[١٣] وفى كتاب «ميزان الاعتدال» للذهبى[١٤] المتوفى سنة ٧٤٨ للهجرة . والصحيح هو العكس . فقد كان شعيب بن ابراهيم راوية كتب سيف ، وقد صرح بذلك ابن حجر العسقلانى فى كتابه « لسان الميزان »[١٥] . كما أن الطبرى نفسه يفند رأى الفهرست وميزان الاعتدال فى جميع المواضع التى وردت فيها أخبار سيف حيث يقول مثلا « وحدثنى

(١) تهذيب التهذيب جـ ٩ ص ١٨٠

(٢) ص ٨ ، ٩ ، ١٢ ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون .

(٣) الطبرى جـ ٤ ص ١٥٣ (الطبعة المصرية) .

(٤) الطبرى جـ ٤ ص ١٥٥ .

(٥) الفهرست لابن النديم ص ١٣٧ (الطبعة المصرية) ص ٩٤ طبعة أوربا .

(٦) طبرى دورة أول ص ١٧٤٩ (طبعة دى غوية) .

(٧) طبرى دورة أول ص ٣٢٥٥ .

(١) الفهرست ص ١٣٧ .

(٢) طبرى دورة أول ص ١٧٤٩ .

(٣) ص ٣٢٥٥ .

(٤) طبرى طبعة مصر جـ ٤ ص ١٢٤ ، طبعة لايدن دورة أول ص ١١٩٧ .

(٥) لسان الميزان جـ ٣ ص ١٤٥ ، ميزان الأعتدال جـ ١ ص ٤٤٧

(٦) الفهرست ص ١٣٨ .

(٧) ميزان الاعتدال جـ ١ ص ٤٤٧ .

(٨) لسان الميزان جـ ٣ ص ١٤٥ .

بهـذا الحديث السرى عن شعيب بن ابراهيم عن سيف »[1] . أو «حدثنا السرى قال أخبرنا شعيب قال حدثنا سيف»[2] أو « كتب إلى السرى بن يحيى عن شعيب عن سيف»[3] أو «قال أبو جعفر[4] فيما كتب به إلى السرى بن يحيى يذكر عن شعيب بن ابراهيم أنه حدثه عن سيف بن عمر »[5] . فكان شعيب بن ابراهيم إذاً من تلامذة سيف بن عمر ورواته وحامل كتبه والمقربين لديه .

وشعيب بن ابراهيم مثـل شيخه لا تعرف من أمره مع الأسف شيئاً ، وقد طعن أصحاب علم الرجال فيه ، وقالوا إن فيه جهالة وفيه بعض النكرة[6] . وهى أقوال قيلت فى أكثر الرجال الذين مالوا إلى الأخبار ، وقيلت أقوال أخرى أشـد من هذه فى أناس أعرف عندنا من سيف ، ومن شعيب ، ومن السرى بن يحيى ، مثل ابن إسحاق صاحب السيرة الشهير[7] ، والواقدى محمد بن عمر المتوفى سـنة ٢٠٧ للهجرة[8] . وابن الكلبى ، وفى أناس أرفع من هؤلاء فى نظر أهل الحـديث مثـل عبد الملك بن جريج[9] . فلا غرابة إذا رأينا كتب الرجال وهى تجرح هؤلاء : السرى بن يحيى وشعيب بن ابراهيم وشيخه سيف بن عمر . وسبب ذلك على ما يظهر انشغالهم برواية الأخبار . وقد كان الاشتغال بهـذا الفرع فى القرنين الأولين من الأمور التى لا ترفع من شأن الرجل فى نظر المحدثين .

وتتصل رواية الطبرى من سيف بن عمر بطريق آخر : طريق عبيد الله بن سعيد الزهرى المتوفى سنة ٢٦٠ للهجرة[10] . وقد ورد اسمه فى « ٤٠٠ » موضع من تاريخ الطبرى[11] . وقد نقل روايات « سيف » عن عمه يعقوب بن ابراهيم بن سعد الزهرى نزيل بغداد المتوفى سنة ٢٠٨ للهجرة[1] وكان من رواة «سيف» وكان من رجال الحديث ، كما كان من رجال التاريخ والأدب . وقد ورد اسمه فى « ٣٩ » موضعاً من تاريخ الطبرى ورد لأول مرة فى حوادث سـنة « ١٠ » للهجرة فى خبر حجة الوداع ومرض الرسول[2] . وقد نقل خبره عن سيف . ويظهر من هذا الموضع ومن مواضع أخرى أنه كان لسيف كتب أخرى فى السيرة وفى الأحداث الأخرى . ربما لم تلق رواجاً ، أو حدث لها ما سبب فقدانها فلم يصل خبرها إلى ابن النديم وغير ابن النديم .

واعتمد الطبرى فى فصل الفتوح على كتاب سيف كذلك ، وقد أخـذ الفتن من « السرى بن يحيى » فى الغالب ، واعتمد عليه فى أخبار الفتن التى قامت على عثمان مثـل فتنة « عبد الله بن سبأ » التى أظهرها فى البصرة عام « ٣٣ » للهجرة . وقد نقل سيف روايته عن « عطية بن الحارث أبو روق الهمدانى من كبار رواة الأخبـار فى الكوفة ومن مشاهير المفسرين . وهو من رواة عكرمة والضحاك بن مزاحم[3] . وقد ورد اسمـه فى « ٤٦ » موضعاً من تاريخ الطبرى[4] وقد أخـذ أبو روق أخباره عن عبد الله بن سبأ وخبره مع أبى ذر الغفارى ، ومراسلات ابن سبأ مع زعماء الفتنة من شخص آخر هو يزيد بن الفقعسى ، ورد اسمه « يزيد » فى « ٥ » مواضع من تاريخ الطبرى كلها فى حوادث أيام عثمان وعلى[5] . ومن هـذا المصدر أخذ أكثر أهل الأخبار رواياتهم عن عبد الله بن سبأ وفتنته فى إيام عثمان وعلى . وإليك يجب الانتباه إلى ذلك عند تدوين هذا الحادث والتمسك فى البحث

وقد ذكر الطبرى أسماء مشائخ «سيف بن عمر» فى المواضع التى أورد فيها قطعاً من كتب (سيف) أو رواياته ، وهى تفيدنا بالطبع فى معرفة أساتذة هذا الراوية من جهة ، وفى معرفة الرواة الذين كانوا يتعاطون رواية الأخبار فى ذلك الوقت من جهة أخرى؛ وبينهم عدد يظهر أنهم كانوا من أنشط الأخباريين فى ذلك العهد ربما نتحدث عنهم فى فرصة أخرى إذا طال بنا العمر .

الدكتور جواد على

(١) الطبرى جـ ٣ ص ٢١٤ (المطبعة الحسينية) ومواضع متعددة .
(٢) الطبرى جـ ٣ ص ٢١٥ ومواضع أخرى .
(٣) الطبرى جـ ٣ ص ٢٤١ .
(٤) يعنى الطبرى نفسه .
(٥) الطبرى جـ ٣ ص ٢٤١ .
(٦) لسان الميزان جـ ٣ ص ١٤٥ .
(٧) راجع رأى الإمام مالك فيه تهذيب التهذيب جـ ٩ ص ٤١ ، تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ١٦٤ ، الفهرست ص ١٣٦ .
(٨) تهذيب التهذيب جـ ٩ ص ٣٦٤ . تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٣١٨
(٩) تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ١٦١ ، تهذيب التهذيب جـ ٦ ص ١٠٤
(١٠) تهذيب التهذيب جـ ٧ ص ١٥ « عبيد الله بن سعد بن ابراهيم بن سعد الزهرى » فى طبعة ليدن وفى المطبعة المصرية « سعيد » .
(١١) راجع فهرست الطبرى ص ٣٦٧ (طبعة ليدن) .

(١) تهذيب التهذيب جـ ١١ ص ٣٨٠ .
(٢) طبرى دورة أولى ص ١٧٤٩ ، ١٧٩٤ ، ٢٨٢٤ ، ١٨٢٥ ومواضع أخرى .
(٣) تهذيب التهذيب جـ ٧ ص ٢٢٤ .
(٤) فهرست الطبرى ص ١٩٨ .
(٥) طبرى دورة أولى ص ٢٨٤٩ ، ٨٥٨ ، ٢٩٢٢ ، ٢٩٤٢ .